المحاضرة رقم 01: مدخل إلى مقياس الثقافة والشخصية

تمهيد

تهدف هذه المحاضرة إلى وضع الأسس المفاهيمية والنظرية التي يقوم عليها مقياس **الثقافة والشخصية**، وذلك من خلال ضبط المفاهيم المركزية التي يتأسس عليها هذا الحقل المعرفي، وعلى رأسها مفهوما **الثقافة** و**الشخصية**، ثم مناقشة طبيعة العلاقة الجدلية بينهما، وتعد مدخلاً ضرورياً لفهم الإشكالات النظرية والمنهجية التي تتعلق بمجالات الثقافة والشخصية، إذ لا يمكن دراسة الشخصية في إطار أنثروبولوجي دون الإحاطة بالبنية الثقافية التي تتشكل داخلها، كما لا يمكن فهم الثقافة بمعزل عن الأفراد الذين يحملونها ويعيدون إنتاجها.

أولا: مفهوم الثقافة في الأنثروبولوجيا

1. الجذور التاريخية لمفهوم الثقافة

يُعد مفهوم الثقافة من أكثر المفاهيم تعقيدًا وتعددًا في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وقد ارتبط ظهوره العلمي بتطور علم الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر، ويُعتبر العالم البريطاني **إدوارد تايلور (Edward Tylor)** من أوائل من صاغوا تعريفًا علميًا شاملاً للثقافة، حيث عرّفها بأنها:

"ذلك الكلّ المركب الذي يشمل المعرفة، والمعتقدات، والفن، والأخلاق، والقانون، والعادات، وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوًا في المجتمع."

يُظهر هذا التعريف الطابع الشمولي للثقافة، ويؤكد أنها:

- مكتسبة وليست فطرية
- اجتماعية وليست فردية
- متغيرة وليست ثابتة

وقد مثّل هذا التعريف نقطة انطلاق أساسية لكل الدراسات اللاحقة، رغم ما وُجه إليه من نقد.

2. تطور مفهوم الثقافة في المدرسة الأنثروبولوجية

مع تطور الأنثروبولوجيا، شهد مفهوم الثقافة تحولات عميقة، خاصة مع ظهور المدرسة الأمريكية بقيادة **فرانز بواس**، الذي رفض التفسيرات التطورية والحتمية، ودعا إلى فهم كل ثقافة في سياقها الخاص.

ركز بواس وتلامذته على:

- النسبية الثقافية
- رفض المقارنات القيمية بين الثقافات
- دراسة الثقافة من الداخل (Emic Perspective)

ومن هذا المنطلق، لم تعد الثقافة تُفهم كمجرد مجموعة عادات، بل كـ **نسق متكامل من القيم والمعاني والرموز** التي تنظم سلوك الأفراد.

3. الثقافة كنسق من المعاني والرموز

في الأنثروبولوجيا الحديثة، خاصة مع أعمال **كليفورد غيرتز**، أصبحت الثقافة تُفهم بوصفها:

- شبكة من المعاني
- نظامًا رمزيًا
- إطارًا تفسيرياً للسلوك الإنساني

فالثقافة لا تفرض السلوك بطريقة آلية، بل تمنحه **معنى**، وهذا الفهم الرمزي للثقافة كان له أثر بالغ في دراسات الثقافة والشخصية، لأنه أتاح الربط بين: المعاني الثقافية والتجارب النفسية للفرد.

4. خصائص الثقافة ذات الصلة بدراسة الشخصية

من الخصائص الأساسية للثقافة التي تجعلها محورًا في دراسة الشخصية:

- **الثقافة مكتسبة:** يتعلم الفرد الثقافة عبر التنشئة الاجتماعية، مما يجعلها عاملاً رئيسيًا في تكوين الشخصية.
- **الثقافة مشتركة:** يشترك أفراد المجتمع في أنماط ثقافية متشابهة، ما يؤدي إلى ظهور سمات شخصية مشتركة.
- **الثقافة ديناميكية:** تتغير الثقافة عبر الزمن، وبالتالي تتغير أنماط الشخصية.
- **الثقافة معيارية:** تحدد ما هو مقبول أو مرفوض سلوكيًا ونفسيًا.

ثانيا: مفهوم الشخصية في العلوم الإنسانية

1. تعريف الشخصية في علم النفس

تُعد الشخصية من المفاهيم المركزية في علم النفس، وقد تعددت تعاريفها بتعدد المدارس النفسية، ومن بين هذه التعاريف:

- الشخصية هي التنظيم الدينامي للسمات النفسية والسلوكية داخل الفرد.

- وهي نمط ثابت نسبيًا من التفكير والشعور والسلوك.

ركز علم النفس التقليدي على: السمات الفردية، الدوافع الداخلية، العوامل البيولوجية

غير أن هذه المقاربة تعرضت للنقد بسبب إهمالها للسياق الاجتماعي والثقافي.

2. الشخصية في العلوم الاجتماعية

في مقابل التصورات النفسية الفردانية، جاءت العلوم الاجتماعية لتؤكد أن الشخصية:

- نتاج اجتماعي
- تتشكل عبر التفاعل مع الآخرين
- تتأثر بالأدوار والمكانات الاجتماعية

وقد ساهم علم الاجتماع والأنثروبولوجيا في إعادة تعريف الشخصية بوصفها:

"بناءً اجتماعيًا وثقافيًا، يتشكل من خلال التنشئة الاجتماعية والأنماط الثقافية السائدة".

3. الشخصية من منظور أنثروبولوجي

تنظر الأنثروبولوجيا إلى الشخصية باعتبارها:

- انعكاسًا للبنية الثقافية
- نتيجة للخبرات اليومية داخل المجتمع
- مرتبطة بالقيم والرموز والمعايير

ومن هنا، لا تهتم الأنثروبولوجيا بالشخصية الفردية المعزولة، بل تسعى إلى:

- اكتشاف الأنماط المشتركة
- فهم العلاقة بين الثقافة والشخصية
- تحليل كيفية إنتاج المجتمع لأشكال معينة من الشخصيات

4. الفرق بين الشخصية الفردية والشخصية الاجتماعية

تُميز الأنثروبولوجيا بين:

- **الشخصية الفردية** :الخصائص النفسية الخاصة بكل فرد.
- **الشخصية الاجتماعية أو النموذجية** :السمات المشتركة التي يشترك فيها أغلب أفراد المجتمع.

وهذا التمييز أساسي في مقياس الثقافة والشخصية، لأنه يسمح بدراسة:

- ❖ الفرد داخل الجماعة
- ❖ الخصوصية داخل العمومية

ثالثا: إشكالية العلاقة بين الثقافة والشخصية

1. هل الثقافة تحدد الشخصية؟

أثارت العلاقة بين الثقافة والشخصية جدلاً واسعًا في الأنثروبولوجيا، ويمكن تلخيص المواقف النظرية في اتجاهين رئيسيين:

- ❖ **الاتجاه الحتمي الثقافي:** يرى أن الثقافة تشكل الشخصية بشكل شبه كامل، وأن الفرد ما هو إلا نتاج لثقافته.
- ❖ **الاتجاه التفاعلي:** يرى أن العلاقة بين الثقافة والشخصية علاقة جدلية، حيث:
  - تؤثر الثقافة في الفرد
  - ويعيد الفرد بدوره إنتاج الثقافة أو تعديلها

2. مفهوم الشخصية القاعدية

من المفاهيم المركزية في هذا السياق مفهوم **الشخصية القاعدية**، التي تشير إلى:

- ❖ مجموعة السمات النفسية المشتركة
- ❖ الناتجة عن أنماط تنشئة متشابهة
- ❖ داخل إطار ثقافي معين

وقد استُخدم هذا المفهوم لفهم: الاستقرار الثقافي واستمرارية القيم عبر الأجيال.

3. النقد الموجه لاتجاه الثقافة والشخصية

رغم إسهاماته المهمة، وُجهت انتقادات لهذا الاتجاه، من أبرزها:

- ❖ المبالغة في تعميم السمات الشخصية
- ❖ إهمال الفروق الفردية
- ❖ الاعتماد المفرط على دراسات ميدانية محدودة

غير أن هذه الانتقادات لم تُلغِ أهمية الاتجاه، بل ساهمت في تطويره وتوسيعه.

خلاصة

إذا فمقياس الثقافة والشخصية يقوم على أساس نظري معقد يجمع بين مفهومي الثقافة والشخصية في علاقة تفاعلية جدلية، فالثقافة ليست مجرد إطار خارجي، بل قوة فاعلة في تشكيل التجربة النفسية، كما أن الشخصية ليست كيانًا فرديًا صرفًا، بل بناء اجتماعي ثقافي، وتُعد هذه الأرضية المفاهيمية ضرورية لفهم نشأة هذا الاتجاه وتطوره.